رد على مقال

العدالة الاجتماعية فى الاسلام

للاستاذ محمد رجب البيومى

كنت أقرأ فى مجلة الثقافة الغراء فصولا مختلفة فى قواعد النقد الأدبى ومذاهبه للأستاذ عزالدين إسماعيل ، فألمح أضواء التوفيق فيما أطالع ، وأتصور أن الكاتب سيخطو بالنقد الأدبى خطوة موفقة حين ينتقل من القواعد المذهبية إلى التطبيق ، ولكنى شعرت بمرارة لاذعة حين قرأت ما كتبه بالعدد الأخير من مجلة الثقافة خاصا بنقد كتاب العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، فقد ، قضى على كل أمل كنت أرجوه منه

وكتاب العدالة الاجتماعية فى الإسلام كتاب مرموق فى المكتبة العربية وقد ظهر منذ سنوات ، كما تعددت طبعاته المرة بعد المرة ، فمن يحاول أن ينقده اليوم فلا بد أن يقدم للقارئ مآخذ هامة ظهرت لديه بعد القراءة الطويلة ، والتمحيص الدقيق ، وكنت أنتظر ذلك من الناقد الفاضل ولكن الريح قد أتت بما لايشتهى الملاح

بدأ الأستاذ نقده الثائر بقوله « ويجدر بى قبل أن أطيف بالقارئ فى أرجاء هذا الكتاب أن أنبهه إلى خدعة كبارة ، وهالة باطلة نسجها الإهمال فى وقت من الأوقات عن شخصية المؤلف ، فأخذ مكانه بين الرعيل الثانى من المفكرين فى مصر الحديثة ، وإن أظهر ما تتسم به مؤلفات الأستاذ سيد قطب هو الضحالة والصحافية ، وصياغة أفكار الآخرين من جديد »

فالناقد الفاضل يعلن صراحة أن كتاب العدالة قد شق طريقه إلى الرواج لظهوره فى وقت ممحل جديب ، توقف فيه التيار الأدبى عن سيره المتواصل ، وهذا قول باطل ، إذ أن السنوات الأخيرة قد قذفت إلى المطبعة عشرات الكتب الإسلامية والأدبية لعشرات من أفاضل المؤلفين ، ولم ينفرد كتاب العدالة بالظهور ، ليقال إنه لو ملأ يستأهله من الرواج والذيوع ، كما يحدد الناقد الفاضل مكانة الأستاذ قطب فيضعه فى الرعيل الثانى من المفكرين فى مصر الحديثة ، وقد كان الأستاذ قطب من الرعيل الثانى فعلا قبل أن يبدأ سيله الزاخر فى السنوات الأخيرة بكتاب العدالة وما تبعه من المؤلفات ، أما الآن فلا ينكر عليه منصف مكانه المنفوس فى الرعيل الأول من الكتاب . وليس هذا بكثير على كاتب مجاهد دفع عن زملائه معرة الجبن والخمول ، فهد للثورة الأخيرة بقلمه ، واندفع سنوات متلاحقة يحارب الفساد فى الصحف الحرة النزيهة كالدعوة واللواء والرسالة والاشتراكية وروز اليوسف ، حتى ليجوز أن نشبه موقفه من النهضة الأخيرة بموقف فولتير من الثورة الفرنسية . ولكن الأستاذ عزالدين يقسم الأدباء إلى درجات متفاوتة ثم يعز من يشاء ويذل من يشاء دون عدالة وإنصاف

وهذه السرعة الحيدة الخصبة فى الإنتاج كانت سيئة شنيعة لدى الناقد الغيور ، فجعلته يحكم على إنتاج قطب بالضحالة والصحافية ، ثم يزيد فيزعم أنه يسرق أفكار الآخرين . وإذا أعوزه الدليل على ذلك ، تعدى كتاب العدالة الذى أرهق نفسه فى نقده ، واندفع يقول :

وإن شئت فارجع إلى كتابه « النقد الأدبى أصوله ومناهجه » وهنا تستطيع أن تدرك تماما أن الكاتب أعاد أفكار أبركرمبى وتشارلتن ، ولانسون التى سبق أن ترجمت إلى العربية فإذا بحثت عن جديد يختص به المؤلف أعياك البحث دون جدوى

والكتابان اللذان خدعنا بهما المؤلف ، وخيل إلينا أن فيهما من الأصالة ماينبئ عنه تلك الصفة ، وهما التصوير الفنى للقرآن ، ومشاهد القيامة فى القرآن ، هذان الكتابان ، بكل أسف ليس فيهما من أصالة الفكرة شئ ؛ فقد تلقف الأستاذ سيد قطب أصل الفكرة من الأستاذ العقاد وراح يضخمها حتى ظفر من هذه الضخامة بقدر يملأ كتابا » ! !

ونحن ننقل هذا الكلام لنسجل على الناقد غفلته ، فكتاب النقد الأدبى لايسيه إطلاقا — على فرض التسليم بما ذكره الناقد — أن يفيض بآراء أبركرمبى وتشارلتن ولانسون ، إذ أن الناقد المعاصر لابد أن يحيط بالثقافة الغربية فى موضوعه ، وإذا ظهر فى النقد الأدبى كتاب يخلو من الإشارة إليها فى صفحاته

فقد سقطت قيمته الأدبية دون نزاع ، والناقد الجرئ يتعمد أن يغفل فى كلامه حقيقة هامة ، فالأستاذ قطب لم ينقل آراء هؤلاء النقاد إلا ليطبق عليها الآثار العربية من شعر ونثر ، وقد فاض كتابه الجليل بالموازنة والتحليل ، وهنا تتجلى ميزة قطب الأصيلة فهو باحث تطبيقى يزن الأثر الفنى بميزانه الدقيق ، وليس كمن يحشد لنا القواعد المذهبية فى النقد الغربى من كل مكان ، فإذا أراد تطبيقها على الأدب العربى اضطرب مقياسه ، واختلج ميزانه ، وغمره التلجلج والبهر والارتباك ! !

وقد ادعى الأستاذ عز الدين أن كتابى التصوير الفنى فى القرآن ، ومشاهد القيامة مأخوذان من الأستاذ العقاد ، ولماذا ؟ وأين الدليل ؟ لأن العقاد قد كتب مقالة تشير إلى فكرتهما الأصيلة ! فتلقف قطب الفكرة ! وملأ بها كتابين كبيرين ! وهذا يذكرنى بما يقوله بعض الناس فى معرض الفكاهة والتندر ، من أن أوربا لم تخترع الطائرة ، وليس لها أى فضل فى اكتشافها على الإطلاق ، إذ أن الجوهرى وعباس بن فرناس قدما بالطيران فى يوم من الأيام ، ثم أخذ الغرب الفكرة وادعاها لنفسه دون أن يقوم بمجهود ! ! وهكذا أخذ قطب مقالة الأستاذ العقاد فأفرغ فكرتها الموجزة فى كتابين كبيرين ، فيالله سطو الشنيع والجريمة النكراء ! !

ثم ماذا ؟ لقد لجأ الكاتب بعد هذه المقدمة إلى نقد كتاب العدالة ، فأدهشنى أن يعمد إلى التشويه دون أن يحترم عقول القراء ؛ فهو حين يدلل على ضحالة قطب يزعم أنه استشهد بقوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ليبين أن الإسلام لا يعادى العلم كغيره من الأديان . وهذا غير صحيح ؛ إذ أن قطبا يعرض بعض الخصائص الحية فى الدين الإسلامى ، فيذكر أنه لا يعادى العلم ، ولا يكره العلماء ، وأنه لا يعتمد على الخوارق والمعجزات ، ولا يقوم على الغيبيات فى صميمه بل يقوم على المشاهدة والتأمل والنظر فى الكون . ثم يذكر النصوص الدالة على ذلك من القرآن ، ويعقب عليها بقوله : وذلك طبيعى فى دين يربط التقوى بالعلم ، ويجعل العلم سبيلا إلى معرفة الله وخشيته « إنما يخشى الله من عباده العلماء » فليت شعرى كيف يكون الاستشهاد بالآية بعد ذلك دليلا على أن الإسلام لا يعادى العلماء ؟ وأين تكون الضحالة إذن ؟ أهى عند الكاتب المظلوم ، أم لدى الناقد الممتاز ؟

والمثال الثانى الذى استشهد به الناقد فى مضمار الضحالة أعجب وأغرب من سابقه ! فهو يزعم أن المؤلف يعالج المسائل الكبرى فى تاريخ الإسلام ببساطة عجيبة ، « حتى ليردها إلى محض الصدفة ، ولا يكلف نفسه التغلغل فى العوامل الاجتماعية والتيارات النفسية التى تعمل بقوة فى مد الإسلام وجزره » ، يقول الناقد ذلك ، وتنتظر منه أن يدلك على مأخذ هام عرض له فلا تجد غير مايضحك ويدهش ؟ فقد استنفد الأستاذ قطب عشرات الصفحات فى إيضاح حقيقة الإسلام فى عصر الرسول وخلفائه الراشدين ؛ وأسهب فى دراسة دعائمه الراسخة فى الحرية والعدالة والمساواة ، ثم عرض إلى الحكم الأموى فأوضح مادار على مسرحه من مآس دامية لا ترجع إلى طبيعة الإسلام بل هيأت لها المصادفة التعسة ! أجل لقد فعل الأستاذ قطب ذلك وتدرج مع قارئه فى التاريخ تدرجا منطقيا ، ولكن كلمة المصادفة هذه لا تعجب الناقد ، فيغفل جميع ماتقدمها من تمهيد ، وما أعقبها من استنتاج ليخرج بدعوى عريضة جوفاء لن تجد من يطمئن إليها فى كثير أو قليل !

والمؤلم المدهش أن الأستاذ عز الدين لا يفهم هدف الكتاب المنقود ورسالته فهو يحتم على مؤلفه أن يسهب فى شرح البيعة لعلى ، وأن يقيد من التحليل الرائع الذى كتبه العقاد فى عبقرية الإمام ، وإننى لأجدنى مضطرا أن أنبه الناقد إلى أن كتاب العدالة ليس كتاب تاريخ تراجم فيه مسائل البيعة والخلافة ؛ فتذكر فيه مزايا على كرم الله وجهه ومثالب معاوية الخلقية ، ولكنه يحتاج إلى التاريخ بالقدر الذى يسعف الحجة وينهض بالدليل ، فكيف يفرض الناقد على المؤلف أن يندفع إلى استطراد متكلف لا يعنيه

ويخيل إلى أن الناقد الألمعى لا يعرف شيئا عن الروح الإسلامية التى تغمر العالم الإسلامى الآن ، فقد نسى المسلمون قوميتهم الضيقة وجعلوا الإسلام وطنهم الأول ، وقامت جمعيات الإخوان المسلمين فى شتى مواسم الممالك الإسلامية بمجهودها الناجح فى هذا المضمار . والناقد العلامة يجهل ذلك قطعا ، فيتساءل عن الشخصية المصرية فى

القرنين الأول والثاني من الهجرة وعن الشخصية المصرية الحديثة ، وعن الشخصية الهندية أيضا (كذا) ! كأن باكستان لم تشرق شمسها على الآفاق ، ثم يتذرع بالنطق التاريخي الموهوم فيسأل عن سر الحملة التي توهمنا بأننا تنكبنا الإسلام في حياتنا ورحنا نقتبس من هؤلاء وهؤلاء ! أي والله ، إنها توهمنا فقط أننا تنكبنا الإسلام ؟ ! وإذا كان الناقد لا يعتقد مع الواهمين بأننا تنكبنا الاسلام عدة قرون ، فلماذا يتحدث الآن عنه ؟

وقد أخذ الأستاذ عز الدين يتحدث عن الصحافية التي تتمثل في جميع مؤلفات قطب ، وعن مصادره الثانوية التي لا تصل إلى المراجع الأولى بحال ، وأنت تسأل عن المصادر الثانوية هذه ، فتجدها تتمثل في الكتب الحديثة مهما بلغت في الدقة والتمحيص ! كأن كل مؤلف حديث لا يجوز أن يرجع إليه ألبتة !! وهذا رأي نسمعه لأول مرة ، ونكتفي بتسجيله دون التعقيب عليه . فإذا سألت الناقد عن مظاهر الصحافية كما يفهمها وجدتها تتمثل فيما سماه بالأساليب الخطابية ، والعبارات الطنانة ! ! مما لا يصلح في كتاب يستهدف إلى البحث العلمي السليم . وأحب أن ألفت الناقد إلى أن كتاب العدالة — فوق منزلته العلمية — ذو رسالة عملية ، فقد ألفه كاتبه ليحدث انقلابا شعوريا عاصفا . وليطر بالنفوس الذليلة إلى آفاق العزة والكرامة في أوج الاسلام ، وكتاب كهذا يجب أن يخاطب الوجدان والشعور ، ويتغلغل إلى الخواطر والمشارب ، وكان في طوق مؤلفه أن ينحو به المنحى العلمي الهادئ ، ولكنه مصلح ثائر يحطم السدود ، ويقتحم الحواجز . وكتب الثورة جميعها سماوية وبشرية ، غربية وشرقية تخاطب العقل والشعور معا ، ولا يعيبها أن تلمس لها النقائص تلمسا ، فيقال إن المؤلف يثبت الفكرة قبل أن يبحثها ، إذ أن تقديم الفكرة لا يحول دون مناقشتها ، ودفع ما يقف أمامها من الشبه المضادة ، وإلا فتكون قليلة الجدوى فاقدة التأثير

وقد عمد الناقد المغرض إلى المغالطة والتضليل فيما لا سبيل إلى دحضه فهو يقول « ولعل من صور اضطراب البحث في يد الكاتب أن تجده يقف بك أمام المشكلة في جوهرها ثم إذا به يحيلك على ما سيأتي حتى إذا مضيت قليلا فقد نسيت المشكلة ونسيت ما كان مفروضا أن يأتي لأنك تدخل في شيء آخر جديد

يقف المؤلف في ص ١٩ ليضع هذه المشكلة الجوهرية ؟ هل ما زال في الإسلام عناصر صالحة للتطبيق في العصر الحديث ؟ ثم يقول « هذا سؤال في الصميم » ولذلك لن يكون من المستطاع الإجابة الوافية عنه في هذا الموضوع فسنجيب عنه تفصيلا وتطبيقا فيما بعد « حتى إذا بلغت ص « ٢١٦ » وجدت إجابة باهتة »

والحق الذي لا يمتري فيه إنسان أن صحيفة ٢١٦ ليست وحدها هي الإجابة المطلوبة ، بل إن الكتاب بجميع صفحاته إجابة مقنعة تدور حول هذا السؤال ؛ بل من أجله قد كتب المؤلف كتابه من ألفه إلى يائه . ولن أعمد إلى تلخيص مواضيع الكتاب فيطول بي الحديث في غير طائل ، ولكني أحيل الناقد إلى الفهرس فقط ! وأعلن أسفي لناقد فاضل يعمد إلى هدم كتاب واضح دون أن يفهم مراميه ! ولم يستطع الأستاذ عز الدين أن يخفي عن القراء ما تفيض به نفسه من التحامل المغرض والثورة على صاحب الكتاب، فهو يقرر فقدان الأصالة لدى المؤلف في كتابه لشيء واحد ؛ هذا الشيء هو أن المؤلف قد نقل عشر صفحات عن أربعة مؤلفات وقد أثبتها متفرقة في مواضع شتى من كتابه ، وأسند كل نص إلى قائله ومكانه ؟ فيكون استشهاده بهذه النصوص المنقولة المسندة ، دليلا قويا على فقدان الأصالة ! مع أن صفحات الكتاب تستشرف إلى الثلثمائة ، وكان في طوق كاتبه أن يرجع إلى المصادر القديمة دون أن يشير إلى من نقل عنهم من المحدثين ، ودون أن يؤاخذ في شيء ، ولكنه تجمل بالإنصاف والتقدير فكان جزاؤه أن يتهم بفقدان الأصالة ، وقلة الابتكار

لقد أسرف الأستاذ عز الدين إسماعيل في تجنيه دون مبرر يدعوه إلى ذلك ، وقد دفعني الإخلاص للحق وحده أن أعقب على حديثه راجيا أن يتعود الإنصاف في آرائه المقبلة

محمد رجب البيومي